وحدة العقل
وثنائية المصدرين الدنيوي والديني

– 1 –

من الأدوات أو الأسلحة أو الشُّبه التي قد تستغل من قبل المدرسة التراثية أو معارضيها في فرض الاستبداد الفكري، أن التراثية هي وحدها طريق اتباع الحق، وفي نظرهم أن الإيمان بالدين هو تصديق بالنقل، وبالتالي فهم دعاة الحق طالما أنهم متمسكون بالتراثية التي تؤدي إلىٰ الإيمان بالدين الحق، وأن العقلانيين هم أعداء الدين، لأنهم يقدمون العقل علىٰ النقل، أو يحكمون العقل بالنقل، أو لا يقبلون الدين إذا عارض العقل، وغيرها من العبارات المضللة، وهذا تعارض غير خاص في التاريخ الفكري الإسلامي، ولكنه ما يعنينا بحثه في هذا الفصل.

فقد اتهم أهل الرواية والنقل مخالفيهم من علماء المسلمين بأنهم أهل الرأي وأهل العقل(1)، ممن وصفوا من مدرسة علم الكلام أو مدرسة المعتزلة من أحناف وشيعة زيدية وجعفرية وخوارج وإباضية ومعهم الأشاعرة والماتريدية بعد ذلك، اتهموهم بأنهم أهل الرأي أو العقل، مسبة لا فضيلة ولا مدحاً، وقد اشتهرت هذه التهم في القرنين الثالث والرابع للهجرة واستمرت بعدهما إلىٰ اليوم.

وعلىٰ هذه المشكلة بنيت مشكلة أخرىٰ بعدها وهي تعارض الدين والفلسفة، وكأن الفلسفة بحث عن الحكمة من خارج النقل والعقل الديني، أو هكذا أحب البعض أن

---

(1) انظر: تاريخ المذاهب الإسلامية، محمد أبو زهرة، مطبعة المدني، ص 69. وكتاب: تاريخ الفقه الإسلامي، محمد يوسف، ص 34. وكتاب: التشريع والفقه في الإسلام تاريخاً ومنهجاً، مناع القطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة، 1407هـ – 1986م، ص 172.

يصورها، حتىٰ يجعلها خروجاً عن الدين أيضاً، ومدرسة الاتهام في هذه المرحلة كانت المدرسة المتهمة في المرحلة السابقة، أي أن صاحب التهمة في الغالب من مدرسة المتكلمين، فانبرىٰ للرد علىٰ هذه الفتنة من استطاع أن يجمع الحكمة من مصدرها الديني والدنيوي عقلياً في آن واحد[1]، وقد اشتهرت هذه التهمة والرد عليها في القرنين الخامس والسادس للهجرة، واستمرت بعدهما إلىٰ اليوم.

وأخيراً ظهرت هذه المشكلة مرة أخرىٰ من نافذة الغرب، بدعوىٰ وجود تعارض في إمكانية الجمع بين الدين والدنيا علمياً، فطرحت الحداثة الغربية الإنسان مقابل الإله، والعلم التجريبي مقابل الوحي والدين، والدنيوية مقابل الحياة الآخرة، فيما اصطلح عليه في الغرب الأوروبي بحركة فكرية وسياسية باسم الدنيوية (SECULARISM)، وهي المترجمة خطأ وفرية إلىٰ العربية بالعلمانية[2]، وقد اشتهرت واشتعلت هذه المشكلة بين المسلمين في القرن الرابع عشر الهجري، أي في القرن العشرين الميلادي، وانبرىٰ للرد عليها كثير من المفكرين المسلمين إما باجتهادهم أو باستدعاء الحلول من التراث العربي والإسلامي كما لو أن هذه المشكلة هي المشكلة نفسها التي وجدت في الماضي، فكان الغالب علىٰ الحلول المعاصرة استدعاء حلولها من التراث وعلمائه ومن أبرزها:

1 ـ استدعاء ابن رشد القرطبي (595هـ)، في حل إشكالية الفلسفة والدين، الذي كتب "فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال"[3]، وغيرها من كتبه الفكرية والسياسية.

---

(1) انظر: حوار بين الفلاسفة والمتكلمين، الدكتور حسام الدين الآلوسي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الثانية، 1986م.

(2) انظر: المدخل العلمي والمعرفي لفهم القرآن الكريم، ص 149. والفصل القادم عن: مفهوم للعلمنة في الفكر الإسلامي.

(3) انظر: فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، ابن رشد، سلسلة التراث الفلسفي العربي، إشراف: الدكتور محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 1997م، والجابري من أكثر المتحمسين لمشروع ابن رشد في حل هذه الإشكالية.

2 ـ استدعاء ابن تيمية الحراني (728هـ)، في كتابه " درء تعارض العقل والنقل "[1]، وغيرها من كتبه وفتاويه[2].

3 ـ استدعاء ابن خلدون القرطبي في كتابه " المقدمة "، في حل الإشكالية السياسية العملية والعمرانية والدولة[3]، أي في حل التناقض الأخير بين الدنيا والدين[4].

ـ 2 ـ

هذه المحاور الأساسية في شبهة التعارض بين العقل والنقل، والنبوة والفلسفة، والدنيا والدين، والمحاولات في إثبات التعارض لم تتوقف من قبل غلاة المدرستين، وكذلك محاولات التوحيد بينهما فكرياً لم تتوقف في الماضي والحاضر[5]، ومع أهمية الحلول التاريخية السابقة والحديثة والمعاصرة، إلَّا أن الإشكالية لا زالت قائمة، لأن من يثيرها لا يريد لها حلاً، أي أن المشكلة هي بين المفكرين أنفسهم من أصحاب المدرستين، ونفضل أن نقول: إن المشكلة فكرية أو أيديولوجية وليست عقلية بحسب تعريف العقل في النظرة المعرفية العربية، من أنه " بنية معان " ودوره الأساسي هو في البناء وليس في المبنىٰ، أي هو فعل معرفي.

بينما الفكر هو نتيجة تفعيل هذا العقل، وإن كان تعريف العقل المذكور يحتمل الاسمية،

(1) انظر: درء تعارض العقل والنقل، أحمد بن تيمية، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، وقد نشر باسم: موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1405هـ ـ 1985م.

(2) انظر كتاب: ابن تيمية وإسلامية المعرفة، الدكتور طه جابر العلواني، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، أمريكا، الطبعة الثانية، 1415هـ ـ 1995م.

(3) انظر: فكر ابن خلدون العصبية والدولة، الدكتور محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الخامسة، 1992م.

(4) الذين استدعوا ابن خلدون كثيرون ومنهم الدكتور أبو يعرب المرزوقي في كتابه إصلاح العقل في الفلسفة العربية، نشر: مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 1994م،ص: 385، و394، و395.

(5) انظر: وحدة الفكرين الديني والفلسفي، الدكتور أبو يعرب المرزوقي، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الأولى محرم 1422هـ ـ نيسان 2001م، ص 16.

إذا نظر إلىٰ البناء وهو يتكون من جملة من المعاني أو الأفكار ذات الهوية الفكرية المعينة أو الاختصاص العلمي، وفي كل الأحوال فإن الإنسان هو الذي يدخل الأفكار أو المعاني بمعرفته وإدراكه وفهمه أي بعقله وهو فعل إلىٰ عقله وهو اسم، أي وهو بنية من المعاني المكونة.

ـ 3 ـ

والمصادر التي يأخذ منها العقل أفكاره أو معانيه محصورة في مصدرين لا ثالث لهما هما:

المصدر الأول: هو الطبيعة والوجود والكون والحياة والنظر والتفكير والتأمل فيها وفي الكشف عن قوانينها وأسباب وجودها وضرورتها والانتفاع بها، والغاية منها بالنسبة للإنسان ومصيره فيها.

المصدر الثاني: هو الدين، إما وحياً من الله تبارك وتعالىٰ إلىٰ أنبيائه ورسله من الناس، وإما بما تبلغه الرسل إلىٰ الناس في كتب وصحف علىٰ أنها من الله وكلامه، وإما بيان من النبي لما في هذه الكتب أو الصحف.

ولا يأخذ الإنسان فكره ومعانيه من المصدرين إلّا بالتعليم أولاً، ثم بعد مرحلة التعليم الأساسية يأخذ منهما بنفسه، إما بقراءة الطبيعة أو بقراءة الدين، لأن الوظيفة المعنوية للإنسان في الدنيا هي القراءة، ولذلك جاء تعريف الإنسان في النظرية المعرفية العربية: المخلوق القارئ[1].

ولكن لا يوجد إنسان قارئ من غير تعليم، سواء وهو طفل صغير أو طالب في مدرسة أو طالب في جامعة أو مذهب أو حوزة، ومن ثم ينتقل أو ينطلق في طلبه للعلم بنفسه، إما من الطبيعة أو من الدين، وهكذا تتواصل الحياة الإنسانية العلمية، بين العلم الطبيعي والعلم الديني، وقد تكون القراءة للطبيعة والدنيا صحيحة أو خاطئة، وهذا الخطأ من الإنسان وليس من الطبيعة ولا من الدنيا، وأما قراءة الدين والتعلم منه، فيختلف عن الطبيعة، فإذا كان الدين حقاً وكاملاً وصادقاً، فإن الصواب الذي يتوصل إليه الإنسان بقراءته للدين

---

(1) كتاب: فهم الإنسان، النظرية المعرفية العربية، عمران سميح نزال، ص 209.

يكون بقراءته الصحيحة واجتهاده الصائب، وأما إذا أخطأ في فهم الدين وهو حق، فإن الخطأ يكون من قراءة الإنسان للدين وليس من الدين نفسه.

أما إذا كان الدين وهو مصدر للعلم الإنساني باطل بذاته وخاطئ في أحكامه، فإن قراءة الإنسان لهذا الدين تؤول إلىٰ البطلان والخطأ لا محالة، فإذا كان الإنسان ضحية الانتهاء إلىٰ الدين الباطل منذ طفولته وورثه عن أبويه وقومه، فإنه سيجد في مجتمعه من العقلاء من يدعونه إلىٰ ترك الدين والتفكر في الطبيعة لتكون مصدر علمه الوحيد، فيدخل بسبب ذلك مع نفسه وأهله وقومه وما فيه من مدارس تراثية في صراع مرير، ويحاول أن يوفق أو يلفق بين المصدرين، وهذا ما يحدث مع غير أتباع الدين الإسلامي في العالم أجمع، في التاريخ والحاضر، فإنهم يجدون أنفسهم أمام مصدر للعلم أو التدين غير مقنع عقلياً وغير موافق للعلم، ولكنهم مضطرون لقبوله والادعاء بتصديقه والإيمان به.

أما المسلمون وقد حفظ الله تبارك وتعالىٰ لهم الدين الإسلامي، بحفظ القرآن الكريم وبيانه النبوي الصحيح، فإن وقوع الخطأ في وصولهم للعلم الصحيح من مصدر الدين، فهو بسبب خطأ وقع في قراءتهم للدين، والدين الإسلامي نفسه لم يمنعهم من أخذ العلم من الطبيعة والأرض والسماء والحياة، في مثل قوله تعالىٰ: (قل سيروا في الأرض فانظروا) وغيرها، بل حثهم وأوجب عليهم التفكر والتدبر والعقل، ولم يمنعهم من الدنيوية، أي أن يكون علمهم بغض النظر عن مصدره من أجل نفعهم في الدنيا، وهم أحياء فيها، والذي اشترطه عليهم أن تكون دنيوية صالحة، وهذا معنىٰ العمل الصالح، لأن العمل الصالح دنيوي وليس أخروياً، بدليل قوله تعالىٰ: (وعمل صالحا) للمسلم والمؤمن وهو شخص واحد، وقوله تعالىٰ: (وعملوا الصالحات) للمسلمين والمؤمنين وهم جماعة في مجتمع مدني.

— 4 —

إذا كان ذلك صحيحاً فمن أين يأتي التعارض بين العقل والنقل، وبين الدين والفلسفة، وبين الدنيا والآخرة؟ هذا التعارض يأتي من المفكرين أو التراثيين أنفسهم، أي يأتي من

الإنسان وليس من تعارض المصدرين، فالإنسان الذي يخطئ في فهم رسالة الدين أو يحصره علىٰ فهمه الخاص، فقد ضيق موسعاً، وجهل من الدين أكثر مما يعلم، فلم يأت الدين معارضاً للعقل ولا معارضاً للفلسفة التي هي نظر في الموجودات[1]، ولا معارضاً لاستصلاح الدنيا من أجل سعادة الإنسان وصلاحه وصلاح دنياه.

فالصراع في حقيقته بين من يفهم الدين علىٰ أنه صراع مع الدنيا وأهلها، أو مع من يفهم الفلسفة علىٰ أنها صراع مع الدين وأهله، أي بين المنتجين لهذه الأفكار علىٰ أنها متعارضة، أي بين أهل الفكر الديني وأهل الفكر الفلسفي، أو بين من يصفون أنفسهم أهل الرواية والنقل، ومن يصفون أنفسهم أهل الدراية والعقل، سواء كانوا من المدرسة الدينية التراثية، أو من "الفلاسفة"، أي أن المشكلة بين من يوظف الدين أو الفلسفة في إثبات التعارض بينهما، وليس بين المصدرين نفسيهما.

— 5 —

إن هذا يعني أن المشكلة هي مشكلة فكرية بالدرجة الأولىٰ، وبتعبير آخر عقدية أو أيديولوجية، وليست موضوعية أي ليست بين مصادر الفكرين، وإنما بين من ينتمي إلىٰ أحد المصدرين دون الآخر، أو لم يستطع أن يجمع في عقله إمكانية الجمع بين معاني كلا المصدرين في بنية معان واحدة أي في عقل واحد، وهذا يعيد المشكلة مرة أخرىٰ إلىٰ الإنسان نفسه وهو يبني بنية معانيه الذهنية أي وهو يبني عقله، سواء كان من المتدينين، أو من أعداء الدين وبالأخص من يعادون الدين الإسلامي بغير حق، إما عداوة دينية خفية حسداً من عند أنفسهم، أو عداوة أيديولوجية سواء كانوا من العرب أو من غيرهم.

فإذا نظرنا في تعريف العقل في النظرية المعرفية العربية، وتفكرنا في معناه وهو بنية معان،

---

(1) عرف ابن رشد الفلسفة بأنها: " النظر بالموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع "، فصل المقال، الطبعة التي أشرف عليها الجابري، ص 85. وانظر: مجلة المنطلق الجديد، بحث: علمنة الفلسفة في جدلية العلاقة بين المنهج ونتاجه، لبنان، العدد (6)، شتاء ربيع 2003م.

علمنا أنه لا يوجد عقل ديني خالص كما أنه لا يوجد عقل فلسفي خالص، حتىٰ الإنسان المتدين لو ادعىٰ أنه لا يأخذ إلَّا بالدين فقط، فهو من الناحية العملية لا يأخذ بالدين علمياً ولا عملياً، وإنما يأخذ بما فهمه من الدين فقهاً أو عقيدة أو سياسة، أي إنه يتمسك باجتهاده الديني وليس بالدين نفسه، وهذا أمر حسن له، لأنه من الناحية الفعلية يأخذ أجر عبادته العلمية وعبادته العملية.

وإذا أدرك الإنسان المسلم أنه تعلم دينه من أبويه أولاً ومن مجتمعه ثانياً ومن معلميه وأساتذته المدرسين أو المذهبيين أو الحزبيين ثالثاً، فعليه أن يتصور نفسه لو لم يولد في هذه الأسرة وهذا المجتمع ولم يتعلم الفقه والعقيدة من هذا المعلم أو المذهب أو الحزب، كيف سيكون حاله وموقفه، هذا إذا كان من الوسط الفكري الديني الإسلامي، وكذلك حاله لو كان من أوساط فكرية أخرىٰ، وبالأخص من يولد في دين غير الإسلام، وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه أو يفلسفانه أو غيرها.

لا بد أن بنية معانيه العقلية هي تبع لوالديه ومجتمعه في التربية الابتدائية والتعليم الأساسي، وإذا ما أصبح قارئاً بنفسه، وقرأ الكتب وسمع المحاضرات والندوات الثقافية والفكرية وشارك في الحوارات أو الشورات العلمية، أو دخل عالمه الأوسع عبر وسائل الاتصال الحديثة من فضائيات وشبكات اتصال الكترونية (انترنت)، مسموعة ومشاهدة ومخاطبة ومحاورة، فإنه سيبني بنية معانيه الجديدة من خلاله معارفه ومداركه وأفهامه ولغاته، أي أنه هو الذي يقرر الاتفاق والتعارض الذي يريده ويختاره أو يرفضه ويمنعه.

— 6 —

والخشية أن يكون موقف المدرسة الإسلامية التراثية من العقل أو العقلانية في مصطلح العصر أداة فكرية في فرض المذهبية السلبية أي في فرض الاستبداد الفكري، وأن تستغل الاستبداد الاجتماعي في معارضة التوجهات العقلانية في الاجتهادات الإسلامية الأخرىٰ بحجة معارضتها للدين، والخشية أن تستعمل الثقافة التاريخية في هذه المشكلة بين العقل

والنقل أو بين الدين والفلسفة أو بين الدين والدنيا، لفرض مزيد من الاستبداد ومزيد من التراثية، وهو في الحقيقة يستخدمها أداة في دفاعه عن اجتهاده الديني، ولو أنه نظر إلىٰ اجتهاده علىٰ أنه فهم للدين وليس الدين نفسه، لكان الأمر عليه وعلىٰ غيره من المسلمين أهون، وربما سعىٰ هو أيضاً إلىٰ رفع هذا التعارض بين السمع والعقل والدين والحكمة والعلم والدنيا، كما دعا إليها القرآن الكريم.

أما إذا كان يخشىٰ علىٰ اجتهاده الفكري مثل خشيته علىٰ الدين ـ هذا إذا وافق عملياً أن يفرق بينهما ـ فهو في الحقيقة يجهل كثيراً من أمور دينه، لأنه مطالب من دينه دائماً أن يفرق بينهما علمياً وعملياً، وأن يعلم أنه هو من يبني عقله بقراءته للقرآن الكريم وتعلمه بيانه النبوي الشريف، وليس الدين من يبني له عقله، ولذلك جاء الأمر من الله تعالىٰ بالقراءة والعقل والتفكير والفقه والعلم وليس بالتدين، لأنه علمياً وعملياً يبني من المعاني والأفكار ما يفهمه من الدين، وما يفهمه هو أحد وجوه الدين الإسلامي، مما يستدعي من المفكرين بذل كل جهد معرفي ممكن، في بيان إمكانية الوحدة العقلية مع إمكانية الجمع بين مصدري المعرفة الدنيوي والديني.

وهذا يتطلب ضرورة التفريق بين الدين وهو وحي من الله تعالىٰ وبيان نبوي صادق، وبين تفسيره وفهمه واجتهاده، فهذا أمر في غاية الأهمية العلمية، وقد يقال أن الفارق واضح في مادته الأولية، فما من مسلم إلَّا وهو يميز بين كلام الله تعالىٰ وبيانه النبوي، وكلام علماء المسلمين، وهذا صحيح ولكن المطلوب هو التميز العملي، في السلوك الفكري والاجتماعي، أثناء الحوارات الثنائية والشورات الجماعية أو أثناء مجالس الشورىٰ العلمية والسياسية الرسمية.

ـ 7 ـ

والأمر الذي نوصي به المفكرين أن تكون حلولهم في حل مثل هذه المشكلة وغيرها، بتفكيرهم العلمي واجتهادهم الإسلامي الجديد، والتقليل من الاعتماد علىٰ الحلول التاريخية الإسلامية، حتىٰ لو كانت أكثر قبولاً من عامة المسلمين، وتشعرهم بالرضا والقبول أكثر مما

لو كانت من غيرهم، هذا حسن ولكن الأولىٰ أن يطمئن شباب المسلمين إلىٰ أن في الأمة مفكرين وعلماء قادرين علىٰ حل الإشكاليات الفكرية العويصة بتفكيرهم واجتهادهم بأنفسهم، حتىٰ وإن لبست المشكلة الأثواب التاريخية واستنجد بالتراثية سلاحاً لحسمها من قبل أحد الأطراف.

الأولىٰ بالمفكرين الجدد والمجتهدين من شباب المسلمين عدم استدعاء الحلول التاريخية إلَّا استئناساً، والاعتماد علىٰ أنفسهم قبل تراثهم، وأن يكون مصدرهم الديني الأول هو القرآن الكريم، فإن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، وأن يخرجوا أنفسهم ما استطاعوا من التنافس علىٰ قيادة أحد التيارين العقلي أو النقلي، فقد كان التنافس في الماضي أحد الأسباب التي مكنت من وجود المشكلة في الواقع كما لو كانت حقيقية.

۞ ۞ ۞